الزهـــراء

الزهراء أحد قصور أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس فى أزهى أيامها. أشرف على بنائها حتى أنه شغل بها عن صلاة الجمعة يوماً ولما دعى القوم من الإمارة ومن خارجها يوم فتحها. وهنأه المهنئون ومدحه المادحون.

قام بعدها القاضى وإمام الأئمة بالأندلس. منذر بن سعيد البلوطى فصعد المنبر وكان اليوم يوم جمعة فبدأ بقول الحق..

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٢٨: ١٣٥).

ثم أفاض فذم السرف والترف. وإضاعة أموال الأمة فى زخرفة القصور ودمعت عيناه وهو يوجه حديثه لأمير المؤمنين قائلاً:

ما ظننت أن الشيطان ـ أخزاه الله ـ يتمكن منك هذا التمكين. حتى أنزلك منازل الكافرين. فجعلت قداميد بيتك من الذهب والفضة والحق يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا

وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٣٢: ٣٥)

ووصله يقول الحق ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ١٠٩: ١١٠).

ومازال يعظ. حتى أبكى الناس ونسوا الإحتفال. وأرتجى المسجد بالبكاء فلما قضيت الصلاة إنصرف الخليفة مغاضباً.. وقال لإبنه..

- أرأيت جرأته علينا.. والله لا صليت خلفه الجمعة أبداً..

فقال له إبنه الحكم. والذى أصبح بعده خليفة.

وما يمنعك من عزله..

فقال له.. ويحك. أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه وعلمه.. لا أم لك.. يعزل فى إرضاء نفسى ناكبة عن سبيل الرشد.؟ إنى لا أستحى من الله أن أجعل بينى وبينه إماماً غيره. ولكنه قسم سبق.

وبعد ذلك..

أمر بنقض الذهب والفضة من القصر.

فهل كان المنذر إهابياً..

ومع الناصر. موقفاً آخر..

لما أراد الناصر أن يبنى بيتاً لإحدى زوجاته وكان بجوار المكان داراً صغيره وحمام لأيتام تحت ولاية القاضى. فطلب شراءه. فقالوا..

إنه لا يباع إلا بإذن القاضى.

فسأل القاضى بيعه..

فقال القاضى. أبيعه بثلاث.

إذا إحتاج الأيتام ذلك.

أو إذا وهن البناء..

أو غبطة الثمن..

فأرسل الخليفة من يقدر الثمن ولم يعجب القاضى التقدير. وخاف القاضى أن يأخذها جبراً. فأمر بهدم الدار والحمام وباع الأنقاض بأكثر مما قدر الخبراء (ويبدو أن الخبراء الرسميون هكذا دائماً. فى كل زمان ومكان) دينهم دين الملك. وعز ذلك على الخليفة فقال له..

ما دعاك إلى ذلك.؟

فقال القاضى. أخذت بقول الحق تبارك وتعالى. ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩).

يا أمير المؤمنين. لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدر الخبراء للدار والحمام. وبقيت للأيتام الأرض.

فالآن اشترها بما تراه لها من ثمن..

فقال الخليفة الناصر.. أنا أولى أن أنقاد إلى الحق منك..

فجزاك الله عنا وعن أمتك خيراً..

الحق يا سادة يعلو ولا يعلى عليه..

الشيخ طاهر الجزائرى

رجل من رجالات دمشق. نزح إلى مصر لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته. وأخذ يبيع من كتبه. ومن ذخائر المخطوطات التى أفنى حياته فى إقتنائها. ليأكل. وكان يأبى إلا الثمن الغالى من مكتبة المتحف البريطانى أو أى مؤسسة أجنبية أو التجار. فإذا كان البيع لدار الكتب المصرية باعه بنصف الثمن أو للعرب. وذالك ليظل الكتاب فى أيدى العرب لا يخرج عنهم.

فلما كادت تنفد كتبه. سأل أحمد تيمور باشا الشيخ على يوسف أن يكلم الخديوى فى منحه مرتباً دائماً أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء. ونجحت الوساطة ومنح الراتب. فلما علم بذلك غضب أشد الغضب وقال للشيخ على يوسف.

كأنى بك قلت للخديوى أن الشيخ طاهر أثنى عليك. نعم إنى أثنيت عليه لتأييده مشروع زكى باشا فى خدمة الكتب العربية. ولكن ما الذى يضمن لك ألا يأتى الخديوى بضد هذا العمل يوماً فأذمه.؟

فلماذا تسود وجهك بسببى.؟

ومن أذن لك أن تدخل نفسك فى خصوصيات أمرى. إذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه.

ورجع يعيش الكفاف والتقيد بأثمان ما بقى من كتبه.

وهنا قال الشيخ على يوسف..

كنت أظن أن هذه الطبقة من الأفاضل قد إنقرضت. فلما رأيت الشيخ طاهراً علمت أنه لا يزال على وجه الأرض بقية منها. (من كتاب رجال من التاريخ الشيخ على طنطاوى دار البشير الجزء الثانى).

النصر بخلق الرجال

فى تاريخ السلف من أمراء المسلمين ما فيه صور ناصعة البياض. عظيمة الصورة والمظهر..

ذاك أن السلطان محمود الخليجى إستنجد بالسلطان مظفر بن محمود ملك «أحمد أباد» بالهند وكانت تسمى دولة الكجرات. فقد غلبه المجوس على دياره واحتلوا عاصمته وفيها أهله وأمواله وخرج السلطان مظفر لنجدة السلطان محمود الخلجى بجيش ضخم. فخدعه العدو وعرض عليه أن يسلم له القلعة وما طلوه حتى جاءهم المدد بالقائد الهندى (رنطاسانطا) وكار السلطان مظفر يسقط بين شقى الرحى إلا أنه وبحيله حربية بارعة وشجاعة نادرة. يفتح القلعة ويدمر الجيشين ويكون له النصر. ولما وصل الى باب القلعة رفض أن يدخلها قائلاً للسلطان محمود الخلجى. باسم الله. (ادخلوها بسلام آمنين). وعطف عنان فرسه راجعاً إلى مملتكه. إلا أن السلطان محمود. أقسم عليه بالدخول. فدخل باراً بالقسم وعرفه السلطان محمود على أبنائه وآثار مملكته ثم قال له..

الحمد لله الذى أرانى بهمتك ما كنت أتمناه.. ولم يبق لى الآن أرب بالملك وأنت أحق به منى...

فقال السلطان المظفر..

يا أخى إن أول خطوة خطوتها إلى هذه المملكة كانت لله. لا لقصد

الملك. والله يبارك لك فى ملكك على أن يقيم فيه كلم الله. وتحكم بشرعه وأن نكون يداً واحدة فى كل أمر.

فقال الخلجى. أيها السلطان. لقد خلى ملكى من الرجال. وليس لدى جيش يحميه ولا أمن عودة العدو.

قال المظفر.. أما هذه. فنعم.

ثم أمر قائده «آصف خان» ومعه إثنى عشر ألف جندى بالبقاء مع السلطان محمود والإئتمار بأمره. وهو يقول لهم.

إن جرايتكم على حالها ورواتبكم ونفقاتكم كلها على كما كانت. وما أعطاكم السلطان الخلجى من شىء فهو توسعة عليكم..

ثم أمر بخزانة للسلطان محمود الخلجى يقوم بها على شئون دولته حتى تستقر الأمور بها.

ولما هم بالرحيل. سأله أركان دولته أن يستأسر لنفسه بالقلعة ويضمها إلى ملكه. فألتفت إلى الخلجى. وقال له..

إحفظ باب القلعة برجالك. ولا تدع أحداً يدخلها بعد نزولى. ولو كان من أصحابى وأولادى..

فى تحذير له من طمع أحد فيها..

والعجيب أن آباء الخلجى كانوا أعداء لدولة الكجرات وألد خصومها. بل إن والد الخلجى هذا المسمى بغياث الدين الخلجى كان قد خرج إلى الكجرات لنصرة كفار الهند على سلاطينها المسلمين..

ويأتى الحفيد ويحفظ ملك إبنه عليه..

إنهم الرجال ومواقفهم الفاذة.

رجـال الخنســاء

إمرأة أنجبت رجالاً..

فى موقعة القادسية تقدمت الخنساء بنت عمرو بن الشريد بأبناءها الأربعة للجهاد فى سبيل الله.

وكان بنوها من أعظم الرجال وأقواهم عزيمة وأشدهم بأساً.

وقفت بين صفوف الجيش تدفع أبناءها إلى آتون المعركة دفعاً تحضهم وتحرضهم وتذمرهم وتستثيرهم على القتال وتحذرهم من الفرار بقوة القلب ورباطة جأش. وصدق طوية مطوية على الخير لنصرة دين الله تعالى..

وكان مما خضرتهم به قولها..

إنكم أسلمتم طائعين. وهاجرتم مختارين. وإنكم لأبناء أب واحد وأم واحدة ماجنت آباؤكم. ولا فضحت أخوالكم..

فلما أصبحوا باشروا القتال ببسالة وشجاعة منقطعة النظير وبطولة خارقة لا مثيل لها حتى قتلوا الأربعة واحد بعد واحد وكان كل واحد منهم ينشد دخوله المعركة.

رجزاً قبيل دخوله المعركة قائلا:

الأول:

يا إخوتى إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة وإنما تلقون عند الصابحة
من آل ساسان كلاباً نابحة

وقال الثانى:

إن العجوز ذات حزم وجلد قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبراً بالولد فباكروا الحرب حُماه فى العدد

وأنشد الثالث:

والله لا نعصى العجوز حرفاً نصحاً وبراً صادقاً ولطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفاً حتى تلفوا آل كسرى لفا

وأنشد الرابع:

لست الخنساء ولا للأخرم ولا لعمرو دى السعاء الأقدم
إن لم أره فى الجيش جنس الأعجمى ماضٍ على الهول خضم حضرمى

فلما بلغها إستشهاد الأربعة. قال:

الحمد لله الذى شرفنى بشهادتهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته.